

مناخ ما بعد النكسة في قصص « الجريمة »

لا الحرص على العدالة ولا الثأر للحب المؤؤد ، هو الحافز الذي يحمل بطل القصة ، عشيق السيدة القتيلة ، على التنقيب الدؤوب عن القاتل .. والضحية بدورها لا تستشير فينا الشفقة على مصارع العشاق ، فهي ربما كانت امرأة مضللة وعاكزة . ان الاتهام لم يعد مقترنا بادلته ، لكنه الحل الاخير للبحث المقيم ، او هو البديل الوحيد عن الجهول بالفاعل الحقيقي .. ومع الايام يهسي الجو الشاذ جو الحياة ذاتها ، بحيث ان توتر البحث والترقب والشك والخوف لا يحول دون ان يفكر الانسان بالزواج والاستقرار . لذا فان مراحل الحدث وتعقيداته لا بد ان تصب في اتهام اقرب الناس الى تناول السيد : العشيق البريء .. يقول له الضابط : جميع من اشتبهت بهم ابرياء ، فتساءل بانكار : فمن القاتل اذن ؟ فأجاب الرجل بهدوء وثقة : لم يبق الا انت !

يطالعنا التشويق التصحي ذاته في قصة (الحجرة رقم ١٢) ذات المني الرمزي الدقيق يشوبه حس ساخر ينبعث من تصوير الفوضى والانتظار والفوضى في شخصية المرأة التي يمكن ان تكون رمزا : بهيجة الذهبية ، المرأة الغامضة مقربة السيوف الكثر : سيدة شديدة التأثير بقوة بئبانها ووضوح قسماها وحدة نظرتها ، تجتذب الناس من كل لون وكل طبقة الى طقوس العهر التي تربع على عرشها ، فتكتظ حجبها برجال ونساء الصفوة القوية والطبقة الوسطى وجهيبة احياء التراث واساتذة الجامعة ورجال الدين وعامة الشعب التي يجتذبها الضعف الى الاغراء ذاته ، لكن لا مكان لها في الحفلة الحاشدة فلتنظر في الاستراحة .. اما سلطة القانون فهي الحارس والفارس ، فالضابط بالداخل ، وحين يشكو مدير الفندق من ان الادور تجري في شذوذ جنوني ، بجيبه المخبر : كل ما يقع ضمن الطبيعة فهو طبيعي (ص ٩٦) ، فما يحدث انما يحدث بعلم الحكومة وتحت سمها وبصرها .. وتساؤل المدير : كيف يتواجدون معا وهي لا تتسع لهم ولو جلس بعضهم فوق بعض ؟ جوابه : انهم ديدان تتقلب في مستنقع ، والموت على الباب في انتظار . يوظف القصاص مفردات الطبيعة : الظلمة والريح والطر ، كخلفية واداة تعبير بحسب توقيت مسعف لتجسيد مرحلتين في نسامي الحدث : الاستسلام ازاء الطوفان القدر : (لم يعد الفندق فتدقا ، فليرقص الجنون ما شاءت له اللحوم والخمور ص ٩٨) ومقاومته حين ينذر بالكارثة الشاملة ، فيهطول المطر الفزير راحت الحجرات كلها ترشح .. ودبت حركة نشاط شاملة وانطلق الفراشون باكياس الرمل وحدثت مفاجأة غير متوقعة ، اذ هب المنتظرون في الاستراحة متطوعين

في قصص (الجريمة) الثماني يواصل الكاتب العربي الكبير نجيب محفوظ سعيه للتعبير عن حياة المجتمع المصري بعد نكسة حزيران ، فرغم انه لم يتناول موضوع النكسة على نحو مباشر وواضح في اي من قصص الكتاب ، ورغم ان هذه القصص تبدو اول وهلة امتدادا طبيعيا لاقاصيص مجاميعه السابقة موضوعات ومعالجة ، فليس بخاف حرصه على ان تتنفس اقصيص (الجريمة) مناخ ما بعد النكسة وتشبع به دون ان توميء نحوه باصبع الاتهام لانها منفصلة فيه وجزء منه ، لذا فانها تتجاوز مرحلة التعبير عن هذا المناخ في ضربات غاضبة سريعة كما حدث في (تحت المظلة) الى محاولة التعبير عن الانار العميقة لهذا المناخ في حياة الناس ، اي محاولة استقصاء هذه الانار وقد امست قوانين اخلاقية .. وهذه الحياة ليست بالطبع منقطعة الصلة بمسار الحياة التي رصد نجيب قوانينها في رواياته وقصصه ، بل هي امتداد لها بوغل في ليل اشد حلكة وهماك ابعسد غورا ، بسبب ان الانحراف الذي كان استثناء يمكن الفاؤه بات قاعدة يتضاءل الامل في نسفها ، بسبب نضاصر الجميع على ترسيخ دعائمه ، فكانهم جميعا مجرمون او ضحايا او الاتان معا ، فهم ضعفاء وجبناء ايضا (ص ١٦٠) يستبد بهم شعور بالعجز والقهر والضياع اللانهائي . ان مكائد المجرمين النشطين لا احلام المعلمين الخاملين هي التي باتت تحكم الحياة لتجنبي منها المكاسب محتالة على كل فانون توجهه كيف تشاء لتقذف بمن لا يتسلح بشريعة القاب الحديث في مهوى الضياع والعدم ، فلا يملك الا ان ينتظر كبطل قصة (العري والغضب) فسي هدوء وتصميم وعناد غير مبال بالعواقب (ص ١٤٧) . ان المؤلف يقترب في هذه الاقصيص من مواقع ورؤى القصاصين العرب المجددين دون ان يشاركهم الانهار بالاشكال الجديدة او الانزلاق للمعالجات الفجة والسريعة ، وان هذه المحاولة الجادة والامينة هي التي تجعل اقصيص الكتاب : مباحث اخلاقية صغيرة .

ان اقصي ما يتاح لشخص هذه المجموعة ان يعموا به من حياة طبيعية هادئة هو ما اتبح لبطل القصة الاولى (تحقيق) : فترة حب قصيرة عميقة مضت في عناء ولم يخلف الا التعاسة والرعب : تقتل المرأة التي احب ، وكان هو اللص المنسلل في ظلام التكنم والشاهد المتخفي فلم يتبين وجه القاتل .. وفي حس قصصي بوليسي حافل بالتشويق والاثارة والترقب يسحب ظل الاتهام على الجميع ، فلا اخيار ولا اشرار .. ان الجميع يمكن ان يكونوا فتنة وهدفا لسوء الظن ، لذا يؤخذ البريء بجريمة الذنب الجهول . ان الخوف من تبعات الاتهام ،

للاشتراك في العمل . وعلا هتاف المدير : (اهلوا الحجرة ١٢ بجميع من فيها ..) ، فلا مفر من التضحية بالجزء العفن من اجل انقاذ الكل قبل ان يتسلل اليه العفن من اولئك الذين ولدوا موتى وينفق الجميع كالبهائم الفرقي .. ولئن كان الاستسلام ازاء ضغوط ومغريات هذا الجزء قد انتهى الى الفوضى الشاملة وبداية الانهيار ، فما زال بالإمكان الحيولة دون ان تقترض عامورة الجديدة في محاولة يسهم فيها الفقراء المنتظرون خارج الدائرة الجهنمية . ان هذه المحاولة هي الخلاص وشرف التحقق الاخلاقي المسؤول ، بهما يتخفف الانسان ، رغم تلاطم الزوبعة في قلب الليل ، من عبء ثقيل ، ويسترد - كمدير الفندق - الثقة وصفاء الذهن .

ان السعي الى فضح الاختلال الشامل وراء الانضباط الظاهري الكاذب هو الذي جعل قصة (الطبول) تعتمد الحركة في ايقاع مستمرسل هادى يبدو وكان لا شيء يحدث وراه ، لكن النظرة المتمهلة تلتقط ما ينطوي عليه المشهد السع من قوة الفنى الرمزي ، فالقصة تفتح عن مستويين متداخلين لاهنى : هي في ظاهرها ضوء يفضح غياب الدور الحقيقي للقوات المسلحة وانحراف هذا الدور الى طقوس يومية خاملة ، فالنتاهات اليومية تحل محل الواجب القومي الجليل تحت ستار من الالتزام الكاذب بالنظام ، وتصبح وقائع الاستعراض اليومي هدفاً في ذاته ، او هي طريق الى هدف (يظل مجهولاً لا يبنى عنه قائنانا) ، لذا تبدو مغامرة الجنود مع فتيات المبنى حين كان القائد ناظماً وكأنها غزوة عسكرية ، فقد راح احد الجنود يهوس بعدها : (نجونا بمعجزة ..) . وخلاصة ذلك كله هو التخلي واللامبالاة : (وقلنا لانفسنا انه مهما كان ومهما يكن ومهما سيكون فليس اخلد من البهجة والمسرة والسرور . ص ١١٤) .

لكن القصة في مستواها الثاني الاعمق نقد ساخر وحزين لتلك الرحلة الجماعية الشاقة المكتظة بالامال والتضحيات والخيبة ، رحلة مهر خلال عقدين وقد بدت : (طويلة بلا نهاية ، معذبة بلا رحمة ، خالية من اي معنى او عزاء ، غير جديرة بالطقوس التي تحكمها والنظام الذي يضبطها والامال المعقودة عليها - ص ١١٥) . انها الرحلة الخطا التي ياتي فيها الامر بالحركة السريعة لا في بدايتها حيث ذروة النشاط ، بل في نهايتها حين تكون القوى قد استنزفت والارادة ماتت : (بهتسا من شدة المباغتة . الحركة الشريفة ندعى اليها عادة في مطلع الرحلة ، وفي ضوء النهار ، اما ان تقرض علينا قبيل النهاية فشيء خارق وغير انساني يراد به القضاء علينا . ص ١١٧) . وهل من نهاية الا ان يساق الطابور عائداً الى نقطة البدء : يفوض كل في وحدته ولا شيء في الممر الطويل سوى روائح الكلس وعطن البول ووقوف الجنود متصبين لاتقاء التقوض والانهيار . ان (الطبول) مثال في احياء الخاص بالعام . وفي تكتم المعنى وسطوعه الهادئ مما .

قصة (العريس) تأكيد اخر على تشيع افاصيص الكتاب بمنساح ما بعد النكسة وقد استحال فيما وقوانين سلوك ، اذ يسمي الانسان منهما دون ذنب ، مطاردا دون سبب ، حتى وهو يمارس ابسط حقوقه واكثرها عدالة وشرعية واستقامة ، وبمسي كل سلوك مهما بدا عرضياً فله دلالته - ص ١٢٢) ، وذلك بدهي اذا كان الواقع كما اشار اليه المؤلف في (حب تحت الطر) واقع المخاوف الصامتة تظلل سحب التلق والتحدر والوجس . ان الحياة العادية والمستقيمة التي يقرها المجتمع ويحث عليها تصبح هدفاً للشك اللاميرد الذي يتصاعد تصاعد المرض تسنده قناعة خرقاء بان : (سوء الظن من الفتنة) ، فهذه القصة الساخرة وان تكن تستعير فكرتها الاساسية من (الخطوبة) القصوصة بهاء ظاهر الممتازة ، فانها تقوم على ادراك لسخف اللعبة وتصميم على المضي فيها رغم العرفة المسبقة بالنتيجة المناقضة للمقدمات ، ففي الوقت الذي يرفض فيه الخطيب ذو الماضي الاعتيادي

بل والمشرّف ، المضي مع هذه السلسلة المتعبة من تلقي الاتهامات ومناقشتها ويتوقع الرفض من عابد ميري ، والد الفتاة ، تأتي الموافقة - بيد صديق كانه النذير والبشير - على الخطوبة . ان (العريس) تلتقي مع (الطبول) في انها لعبة يعرف الجميع انها سخيفة ، لكن لا احد يجرؤ على ههما او الافلات من دائرتها ، وهي مثلها حدث نموذجي يستقطب ما يشابهه ويوحى به .

(هل تخيلت ما يمكن ان يقع لو حققنا العدالة ..) ص ١٦٢ . ذلك هو السؤال الاساسي في الكتاب ، وفي قصة (الجريمة) التي تشبه النصبة الاولى (تحقيق) اذ لم يعد الواجب - كما يقول ضابط الشرطة ، ان تحقق العدالة ، بل المحافظة على الامن ، حتى باهدار جميع القيم . ان هذا الرجل الذي كلف بكشف السر عن الاسباب الخفية لطمس معالم الجرائم في الضاحية ، عن المصلحة المشتركة التي تشد الناس ، فقرأوا واغنياء ورجال امن ، الى ذلك ، ما يكاد يبدأ عمله حتى يصبح منها فيستدعي الى مكتب الامن للتحقق من هويته ، ولا يلبث ان يساوره القلق والخوف من ان يكون مرافباً . ان الخوف هو العلة ، به كان بدء الماساة الشاملة وبامتداد ظل الاسود تمتد مساحة وتوطد اركاناً .. (كانما كل فرد من الضاحية يخشى نفس المصير - ص ١٥٢) . وثمة من يعرف الحقيقة ويتكتم عنها . ان اتهام الجميع : فقرأوا الحي الشرقي ، وسادة الحي الغربي ، والسؤال عها يحملهم على الاشتراك معا في اخفاء الجريمة رغم حدة التناقضات بين الجانبين ، هو المدخل الصحيح الى اكتشاف الحقيقة ، فالسر (يكن في المصلحة المشتركة بين الجميع حتى رجال الامن انفسهم - ص ١٥٨) .. ولكن ، ما افدح ما ينبغي ان يحتمل ويبدل من يتخذ هذا السؤال دليلاً للبحث . ان (امتلاك سر خطير من هذا النوع يعني الهلاك - ص ١١٦) . والالتواء الراسخ الكامن في قلب المسألة كلها يجعل السبيل الوحيد للاستقرار والامن : تحقيق العدالة ، يسمي الاداة الاكثر تهديداً للاستقرار .. وكل ما يدور من ظنون واتهامات واقوال ليس الا (ثرثرة) ، معالجة عقيمة للخوف والعجز ، ثرثرة لا جدوى منها ، ثرثرة واماني فارغة - ص ١٥٢) . ان تقليب المسألة المعقدة على وجوهها لا ينتهي الا الى نتيجة اخيرة وساخرة : (ساكتب ان جميع القيم مهدورة ، ولكن الامن مستتب - ص ١٦٢) .

في قصة (المقاتلة السامية) يعود نجيب محفوظ الى البطل المألوف في تراث الاقصوصة الكلاسيكية : الموظف المنسي البائس رب الاسرة المكتظة الفقيرة ، ليضمه في تجربة يختلط فيها الومبالحقيقة ، فلا احد يدري ، حتى ولا الموظف بطل القصة نفسه ، ان كان الرجل الذي ظهر ثم اختفى هو المدير العام حقا ، اذ لم يره احد الا لما منذ سنوات .. والقصة ليست نقداً ساخراً لسخف السلم البيروقراطي الذي يبد ابسط الامال وينكر على الانسان مطالبته باتفه الحقوق ، لكنها التقاط لخواه المسافة المظلمة الشاسعة بين الاحلام الانسانية الصغيرة والعدالة والمجازة ، وبين تلك القوة المطلقة والغائبة التي لا تصلها هذه الاحلام فلا ترد عليها . ان المدير هو الشخصية المتكررة الحاضرة او الغائبة في معظم اعمال نجيب ، هو زبلاوي والجبلاوي والاب في (الطريق) والمدير العام في (ثرثرة فوق النيل) : القوة القادرة والضئينة والصامتة يخشى بطشها الجميع او يرجون رحمتها فلا يصلها السؤال الا عبر وسطاء ومراحل كانها مراحل الوجد الصوفي ، فالقصة اذن كناية قوية عن هاجس فلسفي يترقق في جسد القصة كله ، وهو الذي يفسر الاشارات التناثرة الى صبر ايوب الطويل وسجن يوسف . ان (القلعة السامية) تشبه الى مدى بعيد روائع يوسف الشارونسي القصصية موضوعاً واسلوباً ومغزى وسخرية حيث يعاقب النفي الوجودي الاستلاب الطبقي ليصوغا ماساة الانسان الحديث التاراجح باشواقه المتواضعة بين التوق والاحباط .

خواطر عن رحلة التعب والانتظار

ظننتك تأتينني
غير ان قطار المساء تباطأ في المشي
قد حمل العائدون دواء السنين بأكتافهم
ميروا المدن الضيقات
الصحارى
وواحاتها

سأرتبك الليل حتى انطفاء المصابيح
قد تنثرين التراب
على وجه حارسك الملكي
فيقفو -

وتأتينني في القطار السريع
فحينئذ قد تذوب المسافات
والجند لا يطرقون حياء
يعرون صدرك ، تبسمين
فترتبك الريح بين الشمال وبين الجنوب
وتأتينني في الشتاء الربيعي
أفرش خدي وردا لحجلك
أشرب نخب صحابي الذين تواروا
وفي ليلة العرس
أعلن ان التي رضعت ثدي أمي
تراءت وراء الشموع
كظلّ النخيل ...

بغداد

ظننتك تأتينني
غير ان قطار المساء تباطأ في المشي
قد حمل العائدون دواء السنين بأكتافهم
ميروا المدن الضيقات
الصحارى
وواحاتها
كنت بين الجنود الذين
يرافقهم تعب الرحلة الثالثة ...

تباطأت في الركض
اني أشمك بين قميصي
وبين انشاءات هديبي
وأدعوك ان ترقدي الليل عندي
فهذا الشتاء الرهيب
يخبىء لي مقعدا أسود الجنبات
عليه رسوم أميز من بينها صورة لملك
وأخرى لرب تكلم باسم أبي
وتكلم باسم صفيري الذي قد يجيء صباحا ...

ظننتك قد جئتني حين كان القميص
يراقب ما بين ثغري وصدرك

جند ، وازدادت احوال الجماهير المعذمة سوءا ، فلا يلقى صباح الاحذية
الا شاكيا مثله . وحين انتهت رفصة الطبقات الوطنية للثورة افتقرت
بها السبل : واحدة الى امتلاك كل شيء ، والبقية الى العوز والضياع
والحيرة والحلم ، (وما زال المالك يملك الحظ كله - ص ١٨٦) .

بين العري والفضب يعلن الشاهد المؤوب عجزه او انسحابه
الموقت ، بعد جولة تنقيب كاشفة لكن غقيمة . . فالقضية بلغت حدا من
التراكم والتعقيد لا لقاء فيه ولا تكافؤ بين الحس الاخلاقي الفردي ،
وبين التواطؤ الشامل على ان يبقى كل شيء ما هو فيه عمى وقبحا
وضلالا . . ومع ذلك ، فان المبادرة تبقى ممكنة ومجدية حين يبدأ الزلزال
او الطوفان ، فلئن لم يعد ممكنا هدم البناء واعادة تشييده ، فلا اقل
من انقاذ ما يمكن انقاذه فيه .

بغداد

واما قصة (اهلا) فهي لولا فقرات سردية موجزة يمكن تدويرها
عودة الى هذا النمط الكلاسيكي المهجور في الاقصوصة : قصة الحوار
... فهي حوار حاد ذو دلالة يقضي فيه الجدل بين النقيضين الى
اضاءة الموقف واكتشاف ابعاده . ونبدو (اهلا) وكأنها صفحات مستقلة
من رواية (حُب تحت المطر) ، فهذا البك الثري وصباغ الاحذية المعدم
اللذان كافحا منذ عشرين عاما عدوا واحدا هو الفقر على اختلاف
موقعهما منه ، يمكن ان يكونا حسني حجازي والشيخ عشاوي في
رواية نجيب الاخيرة . ان الكاتب يستعين بطريفة التقابل والتضاد
لتوصيل رؤيته السياسية عبر صوتين يلتقيان ويتعدان : صوت يفضح
ويشكو ويسخر ، وصوت يبرر ويسوّف ويخدع :

- يا بك .. انا اريد النصر والحياة المعقولة .. ومتى يتم ذلك ؟
- لا ادري متى .. ولكنه يتم بالصبر والعمل والاخلاص . ص ١٨٨
لقد دالت دولة الاقطاع ليظهر اقطاع آخر يتربع على قمته سادة